العربية و شاعرها الأكبر

النشاشيبي

492.704
N251a A
c.2

MAFET LIB
- 1 SEP 1988

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY OF BEIRUT
IL
492.704
N25aA
c.2

العربية وشاعرها الأكبر

أحمد شوقي

اللغة العربية

والاستاذ الريحاني

العربية في المدرسة

من إنشاء

اسعاف النشاشيبي

المفتش العام للغة العربية في ادارة معارف فلسطين

والعضو في المجمع العلمي العربي في الشام

39106

« حق الطبع محفوظ »

سنة ١٣٤٦ هـ — ١٩٢٨ م

« ثمن النسخة ثلاثة قروش مصرية »

يطلب من

نجيب متري

صاحب مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

Cur. Sept. 1931

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

اهدى

هذا الكتاب

الى

مصر

مصدر العلم والمدنية

وموئل العرب والعربية

اسعاف المشاشيبي

كتاب كريم

تشرفت باهداء نسخة من كتابى (كلمة فى اللغة العربية) الى حضرة الاستاذ العربى الكبير، والزعيم العظيم، القاضى العادل، المثل الأعلى فى الاخلاص والوطنية. رجل الشرق خليفة سعد، صاحب الدولة (مصطفى النحاس باشا) رئيس الوزراء فى المملكة المصرية فأرسل الىّ بهذا الكتاب الكريم:

« حضرة الأُستاذ العالم اسعاف النشاشيبى بك

تصفحتُ كتابكم (كلمة فى اللغة العربية) الذى تفضلتم بإهدائه إلىّ ولقد كان يسرّنى أنْ أستمع لما تلهمون، وأنتم تُحاضرون، فقد عرفناكم فى مواقفكم الخطابية تهزّون القلوب، وتُحركون الاحساسات، وتُثيرون كوامن الذكريات بصوتٍ متهدّج يفيض رَوعةً وعذوبة ويُوحى الى السامعين ما طُبعتم عليه من شَغفٍ باللغة، وتفانٍ فى إعزازها وإنهاضها

وإن فاتنى الاستماع فانه لم يفتنى أن أنعم بمعانيك وأساليبك فأرى فيهما صورةَ نفسك التوّاقة، ومثال همتك الحافزة، وغيرتك الملتهبة

وإنّ الأمةَ التى لا تحفل بلغتها، ولا تُعنى بترقيّها مقضىٌّ عليها بالفَناء

ومن أجل هذا أحيّى فى شخصك رجلاً بارًّا بلغته، كريماً فى تحيزته

وسلامٌ عليك من شاكرٍ لك مُثْنٍ على عاملك »

مصطفى النحاس

العربية وشاعرها الاكبر

احمد شوقى

هذه خطبة قلتُها فى القاهرة — حاضرة المملكة المصرية وحاضرة الأمم العربية اللغوية — فى مِهرجان حضرة صاحب السعادة « **احمد شوقى بك** » العضو فى مجلس الشيوخ فى اليوم الثامن عشر من شهر شوال سنة ثلثمائة وخمس وأربعين بعد الألف ونشرتها كلّها من صحف القاهرة الكبيرة ومجلاتها الأهرامُ وكوكب الشرق والسياسة والمنار الاسلامى (١)

وقد كان هذا المهرجان (٢) أعظمَ عيد عربىّ أدبى عرفته العربية منذ كانت العربية .

---

(١) أنشر فى هذا المقام من أقوال الصحف فى الخطبة قول جريدة (الاخبار) الغراء لايجازه :

« أما مفتش معارف فلسطين وعضو المجمع العلمى العربى فى الشام الأستاذ اسعاف النشاشيبي فقد كان خطيباً من الطراز الأول وكانت خطبته التى جعل عنوانها (العربية وشاعرها الاكبر احمد شوقى) فتحاً . فكان فيها مفكراً وباحثاً مع شىء من الصبغة الفلسفية التحليلية ومع قسط وافر من البلاغة والجزالة ودقة التعبير وسعة الاطلاع . ثم ان فى خطبته قصائد منثورة قصيرة حساسة ، وبها عاطفة وطنية ثائرة ، ودعوة الى التقدم قوية صادقة

وكان بودنا أن نثبتها برمتها ولكن نسوق منها ما تلمس منه ما وصفناه لك قال »

(٢) لما جئت وصديق صاحب المعالى العلامة الاستاذ محمد كرد على بك وزير المعارف فى الدولة السورية ورئيس المجمع العلمى العربى لتكريم شاعر العربية الاكبر فى عيده أهلت صحف القوم بالصاحبين الوافدين عليهم تأهيل القريب الصديق بالقريب الصديق لا كتأهيل صاحب الدار بالضيف .

فالقرابات بيننا واشجات محكمات القوى بحبل شديد

وقد أفضلت جريدة (كوكب الشرق) الغراء بهذا القول :

« قدم العاصمة حضرة العالم الكبير الاستاذ محمد كرد على بك رئيس المجمع العلمى بدمشق ، وحضرة الاديب الكبير الاستاذ اسعاف بك النشاشيبي مفتش معارف فلسطين للاشتراك فى حفلات التكريم التى ستقام لحضرة صاحب السعادة أمير الشعراء احمد شوقى بك ونزلا على الرحب والسعة ونحن فى غنى عن الاشادة بذكر الاستاذين فانهما فوق شهرتهما التى طبقت الآفاق فى عالم

وقد لبث أسبوعاً كاملاً . وكان فى رعاية حضرة صاحب الجلالة **فؤاد الاول** ملك مصر (أظفرها الله على عهده بمرغبها وأيّدها وأيده بروح منه) ورآسة فقيد العربية والشرق البطل الخالد « سعد زغلول »

واعلمْ أنّ الداعىَ إلى هذا العيد هو ظهور أكبر شاعر عربى بعد أحمد بن الحسين المعروف بالمتنبى فى هذا الزمان

ولَمَّا أن كانت هذه الخطبة ذوبَ روحى وكانت قد خرجت من أعماق قلبى (كما نعت كارليل الكلام الذى نعته) وكانت قد كُتبت بدمى (كما يطلب نتشه ممّن يكتب) وكان فيهـا صدقُ صاحبها . واجتافها إخلاصُ الحبّ للعربية . وتخلّص منشيها إذْ أنشاها من كل تقليدٍ فى القول وعُبوديّه . وافتُتحت بذلك الابتداء واختتمت بتلك الخاتمة وكان بينهما هاتيك الأحاديث . فلما أن كانت كذلك روى لى الصادقُ أن قد صحبهـا فى مصرَ عند أهل الفضل التوفيق « وما توفيقى الا بالله » وبمحمد وبقرءانه

الادب العربى ، وفوق شخصيتهما البارزة فى المحافل العلمية والادبية فان الاستاذ كرد على كان يصدر المقتبس فى مصر ، وله شهرة كبيرة فى عالم الصحافة المصرية وصداقة شخصية مع معظم كبار أدبائها وشعرائها وعلمائها وكذلك الاستاذ النشاشيبي فان شهرته الادبية فى مصر تكاد تجعله أديباً مصرياً ، وان ننس لا ننس المحاضرات القيمة التى القاها فى المجامع العلمية فى هذه البلاد

لذلك لا عجب ان رأينا الادباء والشعراء وكل ذى مقام فى مصر يتوافدون للتسليم عليهما والترحيب بهما

ونحن من جهتنا نرحب بالاديبين الكبيرين وان كنا نعتقد انهما فى بلادهما ، وان ابحاثهما العلمية والادبية ان كانت تبدأ فى الشام وفى فلسطين فان صداها يتردد فى هذه البلاد ، فيفوح عبيرها فيها ، ويتزود منها كل أديب فى العالم العربى »

الخطبة

ليست دار العربية رمالَ الدهناء أو هضَبات نجد أو الحجاز أو إقليم الشام أو أرض العراق بل دارها كلّ مكان ينطِقُ بالضاد أهلهُ ويتلو فيه كتابَ محمدٍ (صلوات الله عليه) قرّاؤه . وأقوى القوم عربيةً بل العرب العرباء أعرفُهم بأدب العربية . فأهلُ مصر إذاً همُ القبيل المقدّم فى العربية وهم سادات العرب

وليست اللغة العربية يا أيها الراجع من لندن أو من برلين أو من باريس وقد لبث فى تلك المدائِن حيناً فَفَتَنَتْه مدنيّـة المغاربة السحرة ليست اللغة العربية بلغة بدوية ، بلغة صحراوية حتى تُعرض عنهـا إعراضَك هذا وحتى تُؤثر عليها غيرها حين جهلتها ولكنّها لغةً ساميَة ساميّة (ان كان ثمَّة سام) قد نشأت من قبل فى جنّات النعيم عند دِجلةَ ولم تنبت فى القَفْر فتظمأ وتضحى وقد جاورت كل ذات مدنية « وإنّ العلا تُعدى » كما قال أبو تمام ، وقد سَطَرَ أيوبُ الصابر بهـا فى ذلك الزمان سِفرَه أو قصيدته (كما قال فولتير فى المعجم الفلسفى) وسفرُ أيوبَ أجملُ سفر فى التوراة وأيوب العربىّ كهوميَر هو من أكبرِ شعراء العالم

ثم جاءت هذه اللغة مواطنَ الحجاز (وكم فى الهِجْرات[1] من خَيْرات)

---

(١) (الهجرات) بسكون العين . والفتح جائز والاتباع وهذا لصحيح اللام فقط لا لمعتلها إلا ما شذ

فَنَشَّأها الدهر هنا أفضل تَنْشِئَة وهذّبها خيرَ تهذيب . وإنّ البيئةَ التى أخرجت فى الدنيا عظيمَها هى التى جَلّت لغته ولن تكون لغة ذلك العظيم لغة محمد إلاّ عظمية على أن قد تخبُث البيئة بعد طيبها وصلاحها فلا تقذف إلاَّ خبثاً « وَالَّذِى خَبُثَ لا يَخْرُجُ إلاَّ نَكِداً[1] » كما قال الله

ليست العربية بلغة بدوية صحراوية (كما قالوا لك) بل هى اللغة الحضرية كل الحضرية بل هى (ان استكثرتَ هذا النعت) لغةُ الأناسيَة الكَمَلَة الألى سوف يخلفون هذا الإنسانَ بعد أزمان كما خلف هو قِدْماً الذين هم أدنى منه من جماعة القرود[2] المحاكية

ولقد دعا العربيةَ من قبلُ قرءانُها (وهو القرءان هو القرءان) لتكتبَ معجزاته فما وهَنت[3] ولا عجزت ولا ضاقت بل اتسعت وهذا الكتابُ وهذه آياتُه ، وهذه الفاظٌ فى المصاحف تتكلم ، وهذه معانى الكتاب ، الكتاب العبقرىّ كتاب الدهر قد تجسّدت وتجسّمت وعهدنا بالمعانى معنويةً لا تتجسم . فلن تعجز لغة كتب بها إلهٌ كتابَه عن أن يكتب بها البشر

ولقد دعا العربيةَ فى الزمان الأول كل علم وكل فن — ولا كتابَ علمٍ واحداً عند القوم فى ذاك الوقت — فلبّاهما منها خيرُ نَدْب وخير ظهير

---

(١) (النكد) الذى لا خير فيه وهو حال . وقرئ بفتح الكاف على المصدر أى ذا نكد وبسكونها للتخفيف وهو لغة . ويقرأ يخرج بضم الياء . ونكدا مفعول

(٢) فى أمثال العرب : أحكى من القرد

(٣) وهَن يهن . ووهِن يوهَن فى الاساس : قال سمعت من الاعراب من يقرأ : (فما وهنوا) بكسر الهاء

وشهد الأقوامُ فى بُرهة[١] من الدهر أكداساً من الكتب مكدَّسة بل أجبالا . قال غستاف لوبون فى فاتحة كتابه مدنيـة العرب : (اذا بحث الباحث عن آثار العرب فى العلم وعما ابتدعوه علم أن ليس هناك أمة ضارعتهم فجاءت فى الزمن القصير بمثل صنعهم الكبير)

فلو لم يكُ عند العربية عساكر[٢] من الثروة فى اللفظ والأسلوب ما أنفقت هذا الانفاقَ على علوم أصحابها وعلوم سواهم . والفقيرُ المسكين فى الدنيا (يا صاحب) لا يقدر أن يَعُول نفسَه بَلْهَ أن يمونَ الناس

وقد غرّق التتر طوائفَ من تلكم الكتب فى النهر ، وحرّق الاسبانُ نفائس منها بالنار ؛ لكن الباقى (والحمد لله) كثير . وجلّت العربُ عن أن تجرم إجرام ذينك الجيلين[٣] . وكذابٌ أىّ كذاب من قال إنّا حرقنا دار كتب فى الاسكندرية . وكيف يقرفنا القارفون بهذا ظلماً . وما ندب الناسَ إلى العلم كمثل كتابكم كتاب ، ولا دعا إلى التفكير وحبّ الدنيا كزعيمكم محمد زعيم

وأوى الى هذه العربية فى آونة[٤] كثيرات كل أديب وكل عالم وكل شاعر وكل كاتب فبوّأت معانيهم فى أكرمِ مُبَوّأ ، وألبستها أفتنَ ثوب وقَرَتْها (وهى المضيافة وهى الكريمة بنت الكرام) خيرَ قِرًى فاجتلى

---

(١) (البرهة) الزمان الطويل (٢) (العسكر) من المـال الكثير
(٣) (الجيل) الصنف من الناس (٤) (الآونة) جمع أوان

الناس من تلكم المعانى السماويّات فى هذه الحلل العَدَنِيّات[١] حوراً عيناً رضوانيات

فاذا لاقيتم فى عصور المولدين أو فى عصور المتأخرين قبحاً فى القول يُمِضّ الأذنَ أن تسمعه وتقتحمهُ العين إمّا أبصرتْه

وإذا ألفيتم كلاماً بَهْرَجاً[٢] قد وهت أعضاده وتشوّه تركيبه وفَقَدَ ذاك الرونق

وإذا وجدتم شعراً سخيفاً قد عميت معانيه وقد استعجم على تاليه

وإذا سمعتم سجعاً غير طبيعى مُرْتجاً زحّافاً متدحرجاً قد لعنته العربية

إذا وجدتم ذلك فلا تلومُنَّ العربية ولا تَتَنَقَّصُنَّها ولوموا أمة ضعفت فضعف قولُها وذلت فذل شعرها وحارت فى دنياها فاستحار كلامها

لا تلوموا العربية ولوموا أمة ركضت الى الدَّعَة (قبَّح الله الدعة) ثم قعدت

ليس المروءة أَنْ تبيتَ منعّماً ... وتَظلّ معتكفاً عَلَى الأقداحِ

ما لِلرجال وللتنعم انما ... خُلقوا ليوم (عظيمة) وكفاح[٣]

---

(١) (العدنيات) الثياب الكريمة وكثر حتى قيل للرجل الكريم الاخلاق عدنى كما قيل للشىء العجيب من كل فن عبقرى (٢) (البهرج) الردىء . ومن المجاز كلام بهرج وعمل بهرج وكذلك كل موصوف بالرداءة (٣) البيتان لأبى دلف القاسم بن عيسى من قواد المأمون والمعتصم والمشتهر بشجاعته وعصبيته العربية حين ضعفت هذه العصبية ولم تجد من أنصارها إلا مثله ومثل احمد بن أبى دؤاد . وقد أراد الافشين التركى قتل أبى دلف لعربيته وشجاعته فأنقذه ابن أبى دؤاد وقد أورد حكاية نجاته ابن خلكان عند ذكر احمد هذا وهى حكاية عجيبة

« والحركة (كما قالوا) ولود والسكون عاقر » وقد قال أبيقور : أى معنى للكون بالسلم بفقدان الحركة. ولام هذا الحكيم (المظلومُ والله بتلك التهمة[١]) هوميرَ حين سأل الآلهة أن تصطلح كى تزول الحروب

اذا المرء لم يغش الكريهةَ أوشكت حبالُ الهوينا بالفتى أن تقطَّعَا[٢]

وفريدريك نتشه ، يرى أن عمل الرجال إنما هو القتال وعمل النساء هو تمريضُ الجرحى ولا عملَ لهما غير هذا

وليس القصد يا بُنىّ أن تَغلب أو أن تُغلب بل القصد أن تكون حرب ، أن تكون حركة

ألا أيها الباغى البراز تقرَّبنْ أُساقكَ بالموت الذُّعافَ المقشَّبَا
فما فِى تساقِى الموت فى الحرب سُبَّةٌ على شاربيه فاسقنى منهُ واشربا[٣]

لا تلوموا العربية ولوموا أمة تعبّدها حاكمها وتفرعن[٤] عليها و « استجاز كيدها وعدا مصالحها » كما قال ذاك الشيخ فلم تغضب ولم تمش اليه بالسيف . وقد علّم أوائلَها التلميذُ الثانى لشائد الوَحدة العربية طريقةَ تقويم الملوك

---

(١) للمفكر الكبير الافرنسى (جيو) كتاب جيد اسمه (ابيقور) ذكر فيه حال هذا الفيلسوف وحكمته وبرأه من تهمة القوم إياه وبين نوع اللذة التى قصدها الفيلسوف وهى اللذة الفكرية (٢) البيت للعرنى من مقطوعة له فى المفضليات يقول من لم يركب الاهوال تقطع أمره (٣) لقطرى رواها أبو تمام فى حماسته . قالوا : لم تكن الابطال تستحى من الفرار — والفرار عار — من قطرى لفرط شجاعته (الذعاف) سم ساعة (المقشب) الذى قد خلط به أدوية تقوية له

(٤) فى الاساس : فيه فرعنة . قال : وقد يكون مرة ذا فرعنة

لا تلوموا العربية ولوموا أمة صغرت هممها وتضاءلت عزائمها وتهزّعت (تكسرت) أخلاقها (يا أسفِي على صوادقِ الأخلاق يا أسفى على الأخلاق الجيدة) وكان ابنُ الخطاب يقول لها: «لا تصغرن هممكم فانى لم أر أقعد عن المكرمات من صغر الهمم» وكان معاوية كاتب وحى النبي يقول: «يا قوم ان الله قد اختاركم من الناس وصفّاكم من الأمم كما تصفى الفضة البيضاء من خبثها فصونوا أخلاقكم ولا تدنّسوا أعراضَكم فان الحسن منكم أحسن لقربكم منه والقبيح منكم أقبح لبعدكم عنه»

لا تلوموا العربية ولوموا أمة اجتزأت بالقليل وقنعت من دهرها بالدون وأنامها (قتلها) هذا القول الخبيث الأفيونى الكوكينى «القناعةُ كنز لا يفنى» وكانت ما ترضى قبلُ من شىء الكثير وكانت ما تقبل حالاً وسطاً. لا شىء أو كل شىء كما يريد نتشه

ونحن أناس لا توسطَ بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر[1]

وقالوا عليك وسيط الأمور فقلت لهم أكره الأوسطا[2]

وكان دستورها فى دنياها «القناعة من طباع البهائم» و «عليك بكل أمر فيه مزلقة ومهلكة» أى بجسام الأمور. وصاحب هذا القول الكريم

---

(١) البيت لأبى فراس فى رائيته الجيدة التى ليس له غيرها وان كان شاعراً كبيراً

(٢) لكشاجم من شعراء اليتيمة وبعد البيت:

اذا لم أكن فى ذرى شاهق ولا فى حضيض وطىء المطا
وحاولت فى مرتقى هائل توسطه خفت أن أسقطا

هو ابن مصر صاحب رسول الله سيدنا عمرُو بنُ العاص (سلام الله عليه ورضوانه)

وقد راع تقهقرُ هذه الأمة وتدهورها حين تقهقرت وتدهورت شاعريها الاكبرين فى عهد انحطاطها فانكرا الحال واستفظعاها وراح ابن الحسين يقول :

أحقّ عافٍ بدمعك الهممُ ... أحدثُ شىء عهداً بها القدمُ[1]

وانما الناسُ بالملوك وما ... تُفلح عرب ملوكها عجمُ

لا أدبٌ عندهم ولا حَسَبٌ ... ولا عهود لهم ولا ذممُ

فى كل أرض وطئتُها أممٌ ... تُرعى بعبد كانها غنمُ

وقعد رهين المحبسين[2] فى كسر بيته يردد مُبتئساً

يَكفيك حزناً ذَهاب الصالحين معاً ... وأننا بعدهم فى الأرض قطّانُ

إنّ العراق وان الشام مذ زمن ... صفران ما بهما (للعدل) سلطانُ

---

(١) (العافى) الدارس الذاهب . فى شرح العكبرى : قال الواحدى : أولى ذاهب دارس ببكائك الهمم التى قد درست وذهبت أى انها أولى بالبكاء من الدمن والاطلال ثم ذكر قدم وجودها بالمصراع الثانى

(٢) نشرت لى مجلة (الكشاف) فى هذه السنة (رمضان ١٣٤٦) هذا القول وهو خير تعليق لهذه الجمل :

« فقر الأمة العربية وجهلها منذ اعصار صغّرا فى عينها قدر الحياة . وتصغيرها قدر الحياة جلب اليها جهلها وفقرها

وقد ساق الى الأمة هذى النكبة إغارة أجيال من المشرق والمغرب فى القديم عليها ومقالات هندية وفارسية (صوفية) اجتافت عقائدها

ساس الأنامَ شياطينٌ مسلّطة ... فى كل قطر من الوالين شيطانُ

مَن ليس يحفل خمص الناس كلهم ... ان بات يشرب خمراً وهو مِبطانُ

متى يقوم (زعيمٌ) يستقيد لنا ... فتعرفَ العدل أجبالٌ وغيطانُ

صلّوا بحيث أردتم فالبلاد أذًى ... كانما كلها للإبْل أعطانُ

فلم يحفل جمهورها بالحياة احتفال الراغبين فيها . والحياة خليقة جد خليقة بأن يحرص الناس عليها

ولم يتأثلوا المال الكثير ولم يَثرُ عديدهم

« وإنما العزة للكاثر »

و « المال والبنون زينة الحياة »

وعند هؤلاء الأوربيين الخبر اليقين فى سلطان الثروتين ، فاسألوا أهل الذكر

وأجيب داعى القناعة « والقناعة من طباع البهائم » كما قال عربى قديم

ولم يطلبوا العلم الحق ليساندهم فى تكاليف الحياة ويجاهرهم بحقائقها ويكشف أسرارها والحياة (وحياتك يا أخا العرب) جديرة أن تعرف . وظن الغبى أن « أخا الجهالة فى الشقاوة ينعم »

فلم يبتهجوا بالكون ، وما فى الكون إلا المبهج ، ولم يفقهوا معانيه أو بعض معانيه وفى إدراك ذلك

« روح وريحان وجنة نعيم »

وصغرت الهمة ، والجهلاء صغار الهمم ، فلم ينشدوا عزهم ولم يسابقوا فى ميدان السؤدد غيرهم

وغشيتهم — اذ جهلوا وتهدمت الأخلاق — ادواء الزوال زوال الأمم فتحاسدوا وتحاقدوا وتحزبوا وتعادوا

وحسب قطين كل مدينة أن ثغرهم أدنى ربض فى مدينتهم . وخالت كل عترة فى المدينة أن أمتهما انما هى قبيلهما . والجاهلون متصارمون متناكرون لا يتحابون ولا يتعارفون

وقد خاف قِدْماً شائد وحدة الأمة من اختلاف كلمة الأمة فقال كتابه :

« ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم »

فليست اللغة العربية (والحالةُ فى تلكم العصور كما سمعتم عنها) بمستأهلة أن تلام أو أن تعاب . فانها لابست ضعفاء فلبست كساء ضعف ، وعاشرت وضعاء فارتدت شعار ضَعة . وما الضعفُ وما الضعة (والله) من خلائقها

ولو استمرت تلك القوة ولو استمرت تلك المدنية ، ولو لم يكن ما كُتب فى اللوح أن يكون ، لملأت بدائع العربية الدنيا فانها معدِن البدائع ومنجَم كل عبقرىّ رائع

على أن لغة العلم فى العربية (وللعلم لغة وللأدب لغة) لم تُضَمْ ضيمَ أختها. وما المقاصدُ والمواقف وشرحاهما وأقوال ابن الخطيب ومقدمة ابن خلدون

وقال حديثه :

« لا تختلفوا فان من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا »

ولا يضلنك شيطان الوهم فتعد هذا « التكالب » يوم تراه حب حياة أو هياماً بها . إنما هو داء (نعوذ بالعلم الصحيح والتثقيف الهادى منه) وإنما هو شر تلكم الأمة العربية ، وهذا داؤها وهذا دواؤها :

الفقر والجهل وكره الحياة

والغنى والعلم وحب الحياة

« ولم يتأخر من أراد تقدماً ولم يتقدم من أراد تأخرا »

و « من لم يقدمه عزمه أخره عجزه » كما قال محمد بن الحسن وزير السلطان محمود

وعجيب (والله) أن يقعد العرب عن شأنهم مثل القواعد وألا يمشوا اليقدمية فى الدنيا وألا يكونوا (كدأب أولهم) سادة الدنيا وشائد وحدتهم ذاك الشائد وكتابهم ذلك الكتاب وهو الهادى وهو القائد

« أفلا يتدبرون القرءان أم على قلوب أقفالها »

فحىَّ على الحياة أيها العرب حى على حب الحياة وحى على الغنى والعلم »

(على مغريتها) وكلها فى العصور المتأخرة بالتى تذم (فى أسلوب اللغة العلمى) جملتها

ويُخيّل إلىَّ أن نفوس الحكماء العلماء تكون فى أحايين الضعف أقوى من نفوس الأدباء فلا تهِن وهنَها ولا تهون هوانها أو كأنّ العلماء فى الدنيا، وليسوا فى الدنيا، ومن الناس وليسوا من الناس. وقد يلاقى هؤلاء القوم المساكين ربهم ولا أثر لحوادث دهرهم فيهم وقد يتقحمون ميادين الحياة فيتأخرون ولا يتقدمون وكل منهم ينشد متحسراً

وأخرنى دهرى وقدّم معشرا على أنهم لا يعلمون وأعلمُ[1]

يئستُ من اكتساب الخير لمّا رأيت الخير وفّر للشرارِ[2]

وربما لبسوا التُّبان[3] للمصارعة فيُصرعون وقد نازل أمس صاحبُنا (ولسن) ذينك العفريتين (لويد جورج وكلمنصو) فعقلاه عُقلةً فى السياسة شغزبيّة[4] فصرعاه سريعاً « فرجَع موسى إلى قومه غضبانَ أسِفاً » كما قال الله. وأضحى عند جميع الناس ضُحَكة ثم قَضى كمداً

أين الأمم المحررة يا ولسن ؟

ليست العربيـة يا سادة بالمقصرة ولا العاجزة وليس الضعف وليس العجز وليس القبح من طبائعها

---

(١) البيت للزمخشرى (٢) البيت لابى العلاء (٣) (التبان) سراويل صغير للملاحين والمصارعين واتبن كافتعل لبسه (٤) (الشغزبية) وبالراء اعتقال المصارع رجله برجل آخر وصرعه اياه وشغزبه شغزبة صرعه كذلك

وقد كانت تَنْشد فى هـذا الدهر الأطول فى أرجاء الأرض كافةً هِمماً بعيدات ونفوساً سريّات أبيّات وارتقاء فى أمة عربية وعلاء كيما تتجلّى فى الدنيا تجلّيها وكى تضىء كعادتها اضاءتها ، فلما ألّفت فى أرض مصر مرغبَها لمّا وجدت (محمداً ومحموداً) ظهرت بل ائتلقت بل قد تحاقر عند ضياها نور الشمس فكان (يومُ التجلى) كما يقول اخواننا النصارى وكان عيده . وأصبحت الدنيا وقد علت كلمة العربية وأعلن الدهر سلطانها

وغدا محمود سامى يحمل علم الشعر ويبشر الحال برسول فى القريض يأتى من بعد محمود أسمه (أحمد) ولا تسألْ يا هذا قوةَ سامى الشعريّة أن تعطيك أكثر مما أعطتك فبِحسبِك ما أخذت وحسبُ الرجل ما جاء منه

ولا تجود يد إلاّ بما تجدُ

وغدا الشيخ محمد عبده يحمل علم النثر . ويدُ جمال الدين عند محمد وعند العربية وعند مصر وعند المشرق لا تُكفر

فاذكرْ فى الكتاب جمالَ الدين

وأثنِ عليهِ بالذى هو أهلهُ ولا تَكفرنْه لا فلاحَ لكافرِ (١)

إنّ جمال الدين لم يكُ شخصاً فذّاً . إنّ جمال الدين كان أمة . وإنه لم يتنبه من أمم الشرق فى ذاك الوقت إلاّ أمتان لا ثالثةَ معهما : الأولى هى الأمة اليابانية ، والأمة الثانية هى جمال الدين . فجمال الدين أمةٌ وحدَه

---

(١) البيت لعمرو بن نصر من أصحاب المفضليات

وقد أراد ابن الحريرى فى البدْءِ أن يقتل الأستاذ الامام فنجّاه كتاب الله وحديثُ رسول الله منـه . فارجع يا فتى إلى أسلوب القرون الثلاثة الأولى إلى الأسلوب الطبيعى العربى ، إلى الأسلوب الباريسى ، إلى أسلوب القرن العشرين بل الثلاثين بل الأربعين ؛ وانبذ انبـذ مقامات الحريرى ومقامات الهمذانى وما شاكلها ولا تتصفحَنها إمَّا ابتغيْتَ تعرّفها إلاَّ خائفاً وحذارَيْكَ (١) أن يستعبدك متقدم فى الزمان أو متأخر وإياك وأنْ تقلد فى القول أحداً فالمقلدُ عبد ولا يرضى بالعبودية حر والعاقلُ لا يهب كينونتَه لسواه وأن ساواه أو علاه وبعضهم لا يهبها لله (عز وجل) والتقليد عدم والاستقلال كون فلا يؤثر على الثانى الأول إلاَّ أحمق

وقد دارت حول الاستاذ الامام « العبارات الفقهية والقوانين العلمية الخارجة عن أسلوب البلاغة والنازلة عن الطبقة » كما يقول ابن خلدون فما استطاعت لبلاغته إضرارا « ولا خدشت لملكته وجها »

ولا يضر الفقهاء وأهل العلوم تقصيرُهم فى هذا النمط من البلاغة فللعلم (كما ذكرت آنفاً) لغة وللأدب لغة . قال ابن أبى الحديد فى شرح النهج : « وقد استعملت فى كثير من فصوله فيما يتعلق بكلام المتكلمين والحكماء خاصة ألفاظ القوم مع علمى بأن العربية لا تجيزها » وقال أيضاً « استهجنا تبديل ألفاظهم وتغيير عباراتهم فمن كلّم قوماً كلمهم باصطلاحهم ومن دخل ظفارِ حمّر »

---

(١) (حذاريك) كذا أى احذره حذراً بعد حذر من المصادر المثناة للمبالغة

وقد كتب الأستاذ فى العلم بلغة الأدب (كدأب هنرى بركسن فيلسوف فرنسا وكفلا مريون العالم فى الفلك) فراحت رسالته فى التوحيد فى ذاك العصر معجزة

ظهر محمد وظهر محمود فتقوّت العربية بعد أن تضعّفها الخصوم وتعزّزت بعد إذلال فغدا الدهر عند ذلك يُعَبّدُ لنابغة يطلع على الدنيا طريقة

ومن سُنن الله ومن دساتير الطبيعة أَلاَّ يفاجىء نابغة أو عظيم فيما قُدّر له أن ينبغ أو يعظم فيه قومَه مفاجأةً دون أن يستعدوا له ، إذ النابغة فى شىء ما إنما هو جوهر أمتهِ ، ولا يُلخص خير الاّ من خير وما حدث كونٌ عن عدم . وقد أشار الى مثل هذا واضع علم الاجتماع ابن خلدون حين ذكَر أمر الرسالة المقدسة

غدا الدهر يعبّد لنابغة فى القريض يطلع على الدنيا طريقهُ ، وغدا أهل الدهر يرتقبونَ شعراً يُسمى شعرَ النبوغ قد عدِموه منذ عصور ولم يجىءْ من بعد القرون الثلاثة الأولى ومن بعد الذى يقول :

وما تسع الأيامُ عالمى بِأمرها وما تُحسن الأيامُ تكتب ما أُملِى (١)

إلاَّ مقصّدات معدودات وإلاَّ مقطعات قليلات وأبيات نوادر

غدا أهل الدهر يرتقبون شعراً يُشعّ مثلَ الماس إشعاعاً ويزهَر كالدرارى المتوهجة زهوراً بل يُضىء كما تضىء الشمس وقد جمل بل قد تجسّم من الجمال وقد نوّره القرءان فبان بياناً

---

(١) من قصيدة للمتنبى فى الرثاء وفيها هذا البيت :

هل الولد المحبوب الا تعـــلة وهل زورة الحسناء إلا أذى البعل

غدا أهل الدهر يرتقبون شعراً هو فوق الشعر، وكلاما هو فوق الكلام.

كان ابن نباتة السعدى[١] قد سمع مثله من شعر احمد بن الحسين (المتنبى) فقال : « نحسن أن نقول ولكن مثل هذا لا نقول » شعراً متنبياً[٢] غوتياً شكسبيريا يعلق بالخلود أو يعلق به الخلود اذا قيل وينشده الدهر الناقد اذا سمعه

انتظرت الأمم العربية برهةً هذا الشعر النابغ وخروج هذا الشاعر والاقوامُ كلهم أجمعون متطالّون والاعناقُ مشرئبة والوجوه الناضرة كما قال الله : « وجوهٌ يومئذٍ مُسفرةٌ ضاحكةٌ مستبشرة » والعيونُ ناظرة شاخصة والقلوبُ فى الصدور راقصة والدهرُ الذى قد ضَنَّ أمس وجاد اليوم يبتسم

---

(١) من شعراء اليتيمة وصاحب هذا البيت :

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تنوعت الاسباب والموت واحد

ولهذا البيت قصة جميلة غير صحيحة وهى :

قال ابن نباتة كنت قائلا فى دهليزى فدق على الباب فقلت من ؟ فقال رجل من المشرق . فقلت ما حاجتك ؟ فقال أنت القائل : (ومن لم يمت البيت) فقلت نعم فقال أرويه عنك فقلت نعم . فلما كان آخر النهار دق على الباب فقلت من ؟ فقال رجل من أهل تاهرت من المغرب فقلت ما حاجتك فقال أنت القائل (ومن لم يمت البيت) فقلت نعم فقال أرويه عنك فقلت نعم وعجبت كيف وصل الى المشرق والمغرب

(٢) فى احدى ليالى المهرجان فى « كرمة ابن هانئ » قلت خطبة خلاصتها : « أن ليس بسمرك هو شائد الوحدة الجرمانية وان ذكر التاريخ — وقد يجور التاريخ — ذلك لكن شائد وحدتهم هو (غوتى) بانيها قبل بلغته وأدبه وإن غوتى الامم العربية هو احمد شوقى »

فتبلّج (وقد تفتحت أبواب السماء بالدعاء) نور « احمد » يملأ الدنيا وطلع على أهلها « شوقى »

حتى طلعتَ بضوء وجهك فانجلت ... تلك الدجى وانجاب ذاك العِثيرُ
فافتنَّ فيك الناظرون فإصبع ... يُوما إليك بهـــا وعين تنظرُ
يجدون رؤيتك التى فازوا بها ... من أنعم الله التى لا تُكفرُ[1]

وظهرت معه أمة اللغة العربية آخذةً بيمينه وقد انحدرت من مقلتيها دمعتان « ومن السرور بكاء » كما قال المتنبى

جاء (احمد شوقى) وقد أضاء عصر الكهرباء وخرج هؤلاء العفاريت من الافرنج يسحرون الناس بالذى يأتونه وإنّ أعمالهم (والله) لساحرة ، وان مبتدعاتهم (كظلمهم العبقرى[2]) عبقريّـة باهرة، وأقبلت هذه المدنية الغربية ناسخة المدنيات وصاحبة المعجزات المجننات

وما هو إلاَّ أن تراها (بدارها) ... فتبهت ، لا عُرف لديك ولا نُكرُ[3]

مدنية عجيبة مدهشة[4] قد حار فى أمرها القائلون فما يقولون وقد أعجزت

---

(١) الابيات للبحترى (يوماً) خففت الهمزة . (ويومى) والماضى (أومى) لغة

(٢) (الظلم العبقرى) الظلم الشديد : قال : ظلم لعمر الله عبقرى

(٣) لابى صخر الهذلى من قصيدة جيدة مطلعها

لليلى بذات الجيش دار عرفتها ... وأخرى بذات البين آياتها سطر

وقد رواها كلها أبو على فى أماليه . وذكر أبو تمام أربعة أبيات منها فى حماسته

(٤) ذكرت هذه المدنية فى خطبتى (قلب عربى وعقل أوربى) فقلت :

« المدنية الغربية ذات تعاجيب بل ينبوع التعاجيب

فهناك النظام (ياشرق) تصحبه الهيبة (وجئ لندن تشهد عجباً)

شعراءها فما عادوا يبدعون كما كانوا يبدعون وقلّ أو اضمحل فيهم فى الشعر النابغون فلم يُعزّز شكسبير وغوتى فى الغرب بثالث

وهناك العلم قد رافقته الحقيقة

وهناك الفن إن رآه الراءى بهت (واقصد باريس تر الدنيا . وإن يوماً فى باريس خير من خمسين سنة فى الصين)

وهناك الجلد الجرمانى فى العمل والبحث والتدقيق

وهناك الابتداع يتبعه ابتداع يليه ابتداع فيا (أدسن) هل هذا وحى يوحى ؟

وهناك الوطنية تعلم جاهلها كيف تكون

وهناك الحرية اشتريت بغالى الثمن

وهناك (الاقتصاد) وهو عماد ذاك الصرح

وهناك الجود فى سبيل الخير والعلم عساكر من المال كثيرة . وإنه لجود لم يحلم به حالم . ولا دراه كعب بن مامة أو حاتم

وهناك الجامعات النيرات (عرين الفضل وكهف العلم) وإنها لشموس فى الارض تزهر وما اللواتى فى السماء (وأبيك) بأضوأ منهن

وهناك السعى الامريكى والعصامية

وهناك الخلق السكسونى (وهنا القوة لا فى الأسطول)

وهناك صدق القول وصدق الوعد وعدل يوم الحكم (وإن فى برلين قضاة) وما سياسة ذى سياسة أو من ضافك (يا عربى) فى الحى (والضيف يرحل) بالذى هو يكذب قولى (وهل الفيت يا أخى فى دنياك خيراً محضاً)

وهناك (وهذا من حراسها) أساطيل للدأماء . وطيارات للاجواء . وقوة

تلكم مدنية الغرب . فالخير كل الخير فى أن نعرفها . والشر كل الشر فى أن نجهلها وإنا اذا عاديناها وهى السائدة الساطية استعلتنا . وإنا اذا نابذناها وحقدنا عليها حقرتنا . وهى مدنيـة قد غمرت الكرة الارضية . فليس ثمة عاصم وإن أويت الى المريخ

فانك كالليـل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

جاء ذلك وجاء احمد شوقى فما فرّ من أمام ما شهد فرارَ الجبان ولا أُخِم إخام العاجز بل مشى مِشية الليث (كمشى ذاك الحماسى) ونادى لغتَه العربية فأجابتَه، وأهاب بقوته الشعرية فلبَّته

هما عتادى الكافيان فَقَدْ ما أعدَدتُه فلْيناً عنِّى من نأى[1]

فجاء فى الشعر بهذا السحر اللذ[2] رأيتموه وقال ذلك القول اللذ سمعتموه

وقذف بالشطر بنصف البيت قد اجتافه تاريخُ أمة

وسيّر البيت يعرِض فيه للناظرين السامعين دولة

وابتده القصيدة فى شأن فهاج قبيلاً أو أهدأ قبيلاً أو نشّط لما يُعلى أو ثبّط عما يُدنى فذهبت تلك القصيدة فى الناس دستوراً

وإنه لن ينجينا من عفاريت قومها غيرها . ولن يبعد عنا شرهم إلا خيرها . فان امتهن العلم الجهل . أجل العقل العقل . وإن تصارم الاغبياء والأرباء تصافى العقلاء

ان كنت من فارس فى بيت سؤددها وكنت من محتدى بالبيت والنسب
فلم يضرنا تناءى المنصبين وقد رحنا نسيبين فى علم وفى أدب
إذا تقاربت الآداب والتأمت دنت مسافة بين العجم والعرب

وهل يضيم العالم العالم . أو يسوء الحكيم الحكيم ؟ وما يبغى اخو الغرب من فتى من العرب قد خرجه فى مدرسته فشاكله . وقد ثقفته مدنيته فماثله . وهل هداه كيما يضل ؟ وهل داواه لكى يعتل ؟ وهل أراه كيلا يرى ؟

فالمدنية الغربية فيها معقلنا . وفيها سد الصين . وفيها المنجاة من كل مغل شرقى او غربى مقتحم (والخوف من ذاك الجار مثل الخوف من ضيف الدار)

والجار المذكور فى هذا التعليق هو التركى وضيف الدار معلوم . . .

(١) لابن دريد فى مقصورته

(٢) فى المفصل : ولاستطالتهم اياه بصلته مع كثرة الاستعمال خففوه من غير وجه فقالوا : اللذ بحذف الياء ثم اللذ بحذف الحركة

وغاص وحلّق « فأتى (كما قال ابن الأثير فى حق حبيب) بكل معنى مبتكر لم يمش فيه على أثر »

وعرف الشرقَ وعرف الغرب وعرف العصر (وقد جهل غيرهُ عصرَه) واكتنه سر التأخر والتقدم فاعطى الحقيقة فى الشعر وهدى بالكلم الطيّب ذى الحكمة الى الطريق الأقوم

فكن كشوقى يا شاعراً فى هذا العصر فشيّع المجاز بالحقيقة (على أن ليست حقيقة هذا الكون (والله) إلاَّ مجازاً) واعلم أنّ علم الاقدمين دينُهم ودينَ المعاصرين خاصّتِهم علمهم[1] « ولكل أَجَلٍ كتاب[2] » كما قال الله ، وأن الدهرَ دهرُ حقائق بل لا تثبت الحقيقة فيه إلا فى دار الاختبار بالشهود العدول وأن الحال كما قال ذاك الشيخ[3] ذاك الشاك

فقلنا للهزبر أأنت ليث ؟ فشكّ وقال علّى أو كأنى

فحلّق حين التحليق فى طيارة وغُصْ عند الغوص فى غواصة وناج حبيبك بالمسرة اللاسلكية أو (بالرادىّ) فانهما أسرع من خاطرك

ورب معان يُهَمْهِم بها الزمان همهمة ولا يفصح وتختلج فى الصدور ولا تبدو ويجهلها العالم وهى منه مقتربة وتغيب عن الألمعى وهى لم تبعد

---

(١) هذه الجملة خلاصة لكتاب العالم الجرمانى (د . استروس) الايمان القديم والحديث . وقد كان الرجل من شيعة الاول ثم جاء الى فرقة الثانى . وكتابه جيد مفيد

(٢) قال الامام الزمخشرى فى كشافه عند تفسير هذا القول الكريم :
« الشرائع مصالح تختلف باختلاف الاحوال والاوقات فلكل وقت حكم يكتب على العباد اى يفرض عليهم على ما يقتضيه استصلاحهم »

(٣) الشيخ هو المعرى

عنه قد اجتذبتها قوة شوقى الشعرية وبيّنتها أى التبيين للعالمين فعجب الناس بل ما كادوا يقضون العجب

وقد حالف قصيدُ أبى على الفن محالفة صدق فاتضح اتضاحاً وتآخت أبياته تآخياً فهى بنو أعيان لا بنو عَلاَّت ولا أخياف[1] ولا ابناء عم وتعانقت معانيه عناق العاشقين وتجلّت مقاصده وصرُحت صراحة الوطنى ذى الاخلاص

وقد جمّله وقوّاه وخلّده ، عربيته ، متانته ، لغته ، ديباجته ، وإنّ لهذا كما للمعنى لقدراً وان له لبهجةً وان له فى النفوس لأثراً . وإنما المعنى واللفظ شىء واحد فهما كالجسم والنفس والنفس والجسم كائن فرد لا كائنان متباينان

واللفظ والمعنى كمادة الكون وقوته فليس هناك مادة قد انفرقت عن القوة وليس هناك قوة قد زايلت المادة كما يقول (كَنْت) وغير كنت من المثنويين أو الأثنيين

عمدتم لرأى المثنوية بعد ما جرت لذة التوحيد فى اللهواتِ[2]

ليس ثمّة مفترقان إنْ هناك إلاّ اتصال إنْ هناك إلاّ الوَحدة كما يقول محيي الدين وسبنوزة وأرنست هيكل[3]

---

(١) بنو الاعيان أولاد الابوين . وبنو العلات بنو أمهات شتى من رجل واحد . والاخياف الذين امهم واحدة والاباء شتى (عكس العلات)

(٢) البيت للمعرى

(٣) بيّن الاستاذ أرنست هيكل أمر الوحدية والاثنية فى رسالته (الوحدية) وفى كتابيه احاجى الكون وعجائب الحياة تبييناً قريباً

إذا تَبَدَّى حبيبى بأىِّ عين أراه
بعينه لا بعينى فما يراه سواه[١]

بل ليس هذان المعدودان اثنين (أى اللفظ والمعنى) إلاّ صاحبَهما يتجلّى فيهما ومن أجل ذلك يضعف قول أو يقوى ويقبح أو يجمُل ويصغر أو يكبر ويلتبس أو يتّضح . واتلُ أقوال الأمم العربية فى كل عصر تنبئك بأحوالها فأحوالها المتغيرة ذات الضعف وذات القوة هى فى أقوالها فاعرفْ أقوالها تعرفْ أحوالها

وإذا لم يتجلَّ ذو القول فى قوله فليس بذى كينونة وأنه لسواءٍ والعدم[٢] وما قوله قولاً

وإذا تشاكس ذاتَ مرة لفظ قول ومعناه فما هو إلاَّ مخلوق مُشَيَّأ[٣] نعوذ بالله من مرآه

---

(١) لمحيى الدين بن عربى . بلا (ال) وابن العربى غير محيى الدين (تبدى) ظهر . وهذه لفظة شردت عن أصحاب المعاجم وقد وردت فى كلام العرب الموثوق بعربيتهم قال المرار بن المنقذ من اصحاب المفضليات :

لحسبت الشمس فى جلبابها قد تبدت من غمام منسفر

وقال الحماسى :

وبدت لميس كأنها بدر السماء اذا تبدى

والزمخشرى فى كشافه يقول : اجعل ما يقوله ابو تمام بمنزلة ما يرويه فما قولك فيما يرويه وما قولك فى المفضليات . قال التبريزى فى مقدمة شرح الحماسة . من أجود ما اختاروه من القصائد المفضليات ومن المقطعات الحماسة

(٢) معطوف على الضمير فى سواء

(٣) (مشيأ) مختلف الخلق كان فيه من كل قبح شيئاً

وانى أقسم بالقرآن وبلاغته واعجازه وعبقريته وعجائبه التى لن تحصى أنْ لو لم يَكرُم لفظ شوقى فى الشعر كما كرم معناه، ولو لم تُشرق هذى الديباجةُ الشوقية المليحة ذات الحِفلة[1] ذلك الاشراقَ ما كان أحمد شوقى شاعرَ العربية الأكبر وما كان ملكَ الشعر وما كنتم أظفرتموه بهذا اليوم. ولكنه عاقل حكيم عرف كيف يقول وكيف يبنى قصيده ويَشيد أهرامه ليخلد فيها وقد قلت قِدماً: «ما يقى المعانى من الدثور إلاَّ متانةُ ألفاظها وما يخدمها الدهورَ إلاّ تحقيق كلامها» والدهر أثبت ما كنت قد قلته

وما التجدد يا قومُ بصادٍ صاحبَه عن الاحتفال فى اللغة الأدبية بديباجة القول وإحكامه وصيانته من كل خلل وتجلّيه أنيقاً ذا نضارة طبيعياً عربياً بل التجدد يحدو[2] على ذلك لأن التجدد أخو التقدم وخصيم التأخر

ومن التجدد أن تَهيم بالفن وهذا فنّ

ومن التجدد أن تقول القول الجيد المضبوط ليفهم الناس ما تقول

ومن التجدد أن تختار خير طريق فى الإنشاء والقريض فتسير فيهما مستقلاً لتبلغ وتبلغ قومك من الارتقاء ما يجب بلوغه

ومن التجدد أن تَشيد الأمة المتنبهة بنيانها على الأساس القوى لئلاّ ينهار

ومن التجدد أن تتقن يا هذا ما تعمل وترصُنَ ما تعلم وأن تُعِدّ لكل أمر عدته وللكتابة والشعر عدد فقل لى هل أعددتها؟

---

(١) على وجه فلان غسلة اذا كان حسناً ولا ملح عليه ويقال فى ضده على وجهه حفلة (٢) من المجاز حدوته على كذا بعثته

ومن التجدد أن يعلم انه لا يجىء من الضعف والانحطاط إلا الضعف والانحطاط ولا يجىء من القوة والتقدم إلا القوة والتقدم والمتجدد الأريب إنما يريد أن يزداد قوة وتقدماً

ومن التجدد أن يعرف من يروم تغييراً كيف يغيّر فلا يدع الحسن المجمع على حسنه إلى قبيح لا ريب فى قبحه

ولقد أبهج كلَّ أديب عربى أَنْ عرف المجددون فى مصرَ كيف يجددون وأىَّ دين فى التجدد يتبعون

* * *

إن لم تكن القاهرة حاضرةَ الأمم العربية السياسية و « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أمّ الكتاب » فان القاهرةَ حاضرةُ الأمم العربية اللغوية مَلِكُ الشعر فيها «شوقى» والأقاليم العربية فى المشرق والمغرب قاطبة من أعمالها وأدباؤها عمّاله وأهلها « رعية احسانه » وإن لهذا الملك علينا السمع وإن لنا عليه الاجادةَ فى القول وقد (والله) أجاد وقد سمعنا وأطعنا وجئت أحتفى به (يوم تكريمه) فى المحتفين وأعترف بقدرته المتعالية فى القريض مع المعترفين

* * *

جاء محمد وجاء خليفته وجاء محمود وخرج نابغة الشعر العربى «أحمد شوقى» وكان المقتطف ثم جاءت هذه الدولة الأدبية العربية المصرية ومن رجالها الكاتب الاكبر ، والشاعر الاكبر ، والمفكر الاكبر ،

والأديب الاكبر، والخطيب الاكبر، والنقاد الاكبر، والباحث الاكبر، والفقيه الاكبر، والمتفنن الاكبر، والعالم الاكبر، وكل كبير فى علمه وفنه فصاتَ فى أرجاء الكون هذا الصوت

إلا إن محمداً

وذكر محمد

وقرءان محمد

ولغة محمد

وعربية محمد

وأدب محمد

كل ذلك لن يزول، كل ذلك لن يبيد، وفى الدنيا مصر (١)

---

(١) فى حفلة نقابة الموظفين (وكانت من حفلات العيد) قلت خطبة خلاصتها :

« هناك شكران شكر نقدر عليه وشكر لا نقدر عليه اما شكر الاحتفاء بنا واكرام وفادتنا فانه يستطاع (على عظم المعروف وكبره) واما الشكر لمصر خدمة العربية ووقايتها الدهر الاطول فهذا لا نقدر عليه ولا يقدر عليه أحد او أمة فى الدنيا وليس هناك قادر إلا رجل واحد وهو المقيم فى يثرب مهوى افئدتنا وافئدتكم وقرة اعيننا واعينكم خالق العرب والعربية معنى هذا الكون « محمد بن عبد الله » فهو يتولى شكر مصر والمصريين وحمدهم على ذلك »

وقد كان تأثير ما قلت فى القوم كبيراً فخفقت القلوب، واهتاجت اهتياج ابتهاج النفوس وبكت العيون وسُمع النشيج وكانت حال فوق الوصف وقد ذكرت الصحف بكاء الاساتذة الكبار السيد محمد رشيد رضا والشيخ عبد العزيز شاويش والسيد محمد عبد المطلب وذكرت ترقرق الدمع فى عين شوقى

اللغـة العربية

والاستاذ الريحانى

كان المفكر الكبير النابغـة الأستاذ أمين الريحانى قد قرأ كلمتى فى اللغة العربية — وهى الخطبة التى خطبتها فى دار جمعية الرابطة الشرقية فى اليوم الأول من ذى القعدة سنة ١٣٤٣ — فأرسل الىّ بكتاب (نشر فى مجلة منيرفا فى بيروت) فيه ثناء وفيه نقد لا يكتبه إلاّ مثله من الكاملين الفضلاء . فأجبته . فرد علىّ (وكان الرد من جنس الكتاب) فأجيب الردّ بالمقالة الآتيـة . وقد ظهر هذا التجاوبُ فى جريدة الميزان فى دمشق فى رمضان المبارك سنة ١٣٤٤

وربما خِيلَ (إذ كان هذا التحاورُ) أنّ الرأى مختلف . وأنى أريد أمراً ويريد الأستاذ أمراً فى حين ان كلينا لا يبغى للعرب إلا خيراً . وهو حليفى فى آراءى وأنا حليفه فى آرائه

فلْيعلمْ كلّ عاقل أن ليس بين الصاحبين اختلاف . وإنّ مقالة الأستاذ فى (التجدد) فى مجلة (الكشاف) فى بيروت فى السنة الماضية لتثبت موافقة الأستاذ اياى . وأنا (والله) لا أسأل اكثر مما سأله فيها بل أرضى اليوم من أمة العرب بالقليل بل أرضى بالأقل فهاتِ القليل هات الأقل وخذ دنياى

فيبدو لى (والحالة كما بينتها) ان الذى حدا أخى الصديق على الرد علىّ أنهُ عدّنى قد شددت (والشدة حين) فجاء يلين ، وظنى (والظن يقين) أنى لو لنت لرأى الراءى منهُ شدة

المقالة

وجدتُ الأستاذ الريحانى يَعيب فى مقاله التقليدَ[1] والاغراب ويُهجّنُ (اصطلاحات واستعارات يشغف بها المقلدون) ويَعُدّ الانشاءَ فنًّا — والتجاوزُ فى الكلف بالفنّ خسرانٌ — واللغةَ ذريعة — واتخاذُ الذريعةِ غاية ضلال — ويرى أننا محتاجونَ جِدًّ محتاجين إلى الذى هو أنفع إلى العلم الغربى الحق فلا يجوز أن يشغلنا الكلام المزوق عنه

أجلْ إنَّ فى هذا العصر من يُقلّد المتقدمين ومن يُشمله اللفظُ الغريب ومَن يَستجيد الاستعارات ويستملحها فتظلم فيها معانيه ولكنّى (والحمدلله) لستُ كأحدٍ منهم فما أنا بالمقلد أديباً قديماً أو حديثاً بل ممن ينعى على ذى التقليد تقليدَه

وقد أُلاقى الكاتبَ العظيم من المتقدمين فلا يسيطر على ولا أمشى وراءه وله قوته وطريقته ولى ضعفى وطريقتى، وقد يكون متقدّمٌ بعد التحقيق ضعيفاً متأخراً . وقد تكون طريقته مضِلة كابن الحريرى ذى الأسلوب الأعجمى وكمضارعيه من المولدين الذين ضلوا سواء السبيل فتنكّبوا عن النهج الطبيعى العربى وأضلوا من بعدهم خلقاً كثيراً . وقد نددتُ بهم فى

---

(١) قدرت ان الاستاذ قد عنى صاحبه حين عاب التقليد فبنيت الحديث على هذا التقدير احتياطاً . قال ابو تمام :

غير ان الرامى المسدد يحتـــاط مع العلم انه سيصيب

(الكلمة) ودعوتُ القوم إلى هجر كلامهم واتباع طريق المهتدين الصالحين

فلستُ إذاً مقلداً فى القول أحداً وانما هي ألفاظ عربية مضرية عرقتُها وأسلوبٌ عربيّ مبين عقلتهُ ومَلَكَةٌ جاءت ثم كلام هو ذَوب روحى وابن نفسى وخليقتى وطريقتى . وفى الخُلق شدة وفى النفس قوة وفيها وضوح ظاهرها كباطنها وباطنها كظاهرها[1] . فانا أشنأ التزويق فى الكلام وأشنأ هذه الاستعاراتِ المُخْسِرات[2] وأبغض بديع الجماعة فلا أعرّج إلاّ على القول المبين ولا يحى منى إلاّ الجملة البيِّنة . وكرهى الغريبَ الذى ذموه ككرهى الاستعارة الممقوتة . وما هذه الألفاظ التى يطلبها مكانها ويحسبها بعض الناس غريبة (وما هى بغريبة ولا تشبه الغريب) إلاّ ألفاظ مضريّة لا حميرية ولا يمانية وليست من ألفاظ حَضْرَمَوْتَ أو الشَّحْر فلا تذمنْها (يا أخا العرب) ولا تنكرنها ولا تَرَيَنْها غريبة وأعرضْها على السمع لا يمجَّها وحرِّك بها اللسانَ فهو لا يستثقلُها . وما غرّب مثلَها إلاّ تقهقرُ أمة ، القارئ فى بَدْوها وحضرها فى الألف واحد . ولو كان لها حال كحال الأمم ما أنكرت معروفاً ولا استغربت غير غريب

فلست (وهذه حالتى) كما أراد الشيطان أن يصبغنى فى عين الأستاذ الريحانى . وهذه «كلمتى» وهى خطبة خطبتُ بها الخاصة بل خاصّة الخاصة وما أنشأتها للعامة ولا لمن هم فوق العامة — هل تجد فيها غريباً وحشياً

---

(١) اعلم ان اكثر الناس يبطنون ما لا يظهرون ويظهرون غير ما يبطنون فكن يا فاضلا من القوم على حذر (٢) المخسرات تقيض المربحات

وهل تعرِض لك فى جملها استعارةٌ أو تعقيد أو صنعة يستغلق بواحد منها معنًى وهل تعثرْ فيها على تقليد متقدم فى دهره أو متأخر أم تجد كلاماً عربيًّا طبيعيًّا حرًّا قد خاصم الاستعارات وعادى كل صنعة

وقد جاء الأستاذ الريحانى الى (الكلمة) فَنَتَشَ منها ألفاظاً ليعدَّهَا من الغريب ثم يحتَج علىَّ بها وأعرض عن مئين من أخواتها الواضحات عنده وكل عند الحقيقة متضح وكل من قبيل واحد

ولقد كان الكاتب الخطيب الكبير الأستاذ محمد توفيق دياب أرحم فى قوله فى (الكلمة) فإنه يقول فى مقالته البليغة فى (السياسة) الغراء : « نعم لقد أعادنا الأستاذ إلى عهد الجاهلية أو صدر الإسلام حين كان المعنى الضخم يبرز فى اللفظ المتين الضخم وحين كان الكلام يصدر عن القلب فيقع فى أعماق القلوب فى مستقر ثابت مكين . حين لم تكن صناعة مجلوبة ولا حليةٌ مغصوبة ولا ركاكة ولا عوج »

وذاك العهد الذى ذكره الأستاذ دياب ينبيك ببيان قوله المبين وباستقامته وطبيعيّته (قرءان محمد) — على عبقريته وعلى إعجازه وعلى كونه فوق القول — والصحيحُ الذى جمعه محمدُ بنُ إسمعيل وكاملُ محمدِ بنِ يزيد . فاغدُ يا قارئاً إلى أولئك الكتب واعكف عليها ثم قل لى : هل بعد هذا البيان بيان ؟ وهل وراء هذى السهولة سهولة ؟ وهل تقابل غرابةً تذمها أو تكلفاً تمقته أو تحليةً تنفرِّ رائِيَها ؟

وهل تجد عندها ما تجده فى كلام ابن المقفّع والجاحظ والصابى والهمذانى والرضىّ والمعرىّ والحريرىّ وأمثالهم من قَلَقٍ أو ارتباك أو تمطيط أو إسهاب أو تعمّل أو زخرفة

وهل يُلام من يُهيب بالأدباء فى هذا العصر الى ورود تلك الينابيع العذبة الصافية ويدعوهم إلى أن يشيدوا بناءَ لغتهم فى هذا الوقت على تلك الأسس الثابتة القوية لكى يستحكم البناء ويرغد عيش أهله فيه ولكيلا يهىَ أو ينهار ولئلاَّ يُقدم على أن يسوّىَ على بانيه بناءَه مهندس أو بناء . وهل هذه الملاحة على وجوه طائفة من الأدباء والقوة فى أجسامهم إلاّ لأنهم كانوا يردون الينابيع القرءانية ويشربون من مائها .

ولك أن تَشيد (والعلم بالذى تأتيه هاديك) على ذاك الأساس ما تريد فتبنى حمراء أو زهراء أو قصراً بلوريًّا أو قصراً بندقيًّا أو كل صَرح يعجبكَ شَكله . وذاك الأساس فيما تُنشيه أساسك . وذاك النبراس فى البناء نبراسك

هل يلام الداعى الى ذلك وهل يُعدُّ صادًّا عن طريق الخير وسادًّا إيَّاها ؛ وهل يَستأهل[1] أن يُردَّى بثوب التقليد ؛ وأنا (واللهِ) لم ألبسْه

---

(١) (استأهل) استحق استوجب . قال صاحب شفاء الغليل : « قيل مولد . وقال الأزهرى خطأ بعضهم من يقوله . وأما أنا فلا انكره ولا اخطىء من قاله لانى سمعت اعرابياً فصيحاً من بنى اسد يقول لرجل شكر عنده يدا اولاها تستأهل يا ابا حازم ما اوليت بمحضر جماعة من الاعراب فما انكروها . وانكره المازنى »

وفى القاموس المحيط : « استأهله استوجبه لغة جيدة وانكار الجوهرى باطل »

وفى الأساس للزمخشرى « هومستأهل له سمعت أهل الحجاز يستعملونه استعمالا واسعاً »

منذ عقلتُ قطّ ولن ألبسَه (ان شاء الله تعالى) أبدا

* * *

دَعْ ذا وجىء الآن الى قول الأستاذ إن الإنشاء فن، والتجاوزُ بالكلف بالفن خسران وانَّ اللغةَ ذريعة، واتخاذُ الذريعة غاية ضلال . وقل له بعد تحية ثانية :

الحقَّ[1] أنّ اللغة لم تكُ إلاَّ ذريعةً وما هى إلاَّ ابنة لغة الذى هو اليوم أدنى من الإنسان (وان لم ير ادسن[2] الإنسانَ أعلى منه) ولكن المرء قد تفنّن فى هذه الذريعة (كما تفنن فى ذرائع الشر) فجاء منها الفنّ : جاء الشعر وجاء النثر وجاءت تلك الصفحاتُ الجيّدة العبقرية . وأنْ يُقنطر الفتى (كما قال فلوبير) ويسكن قصراً بندقياً منجّدا أهونُ عليه من أن يُنشئَ صفحةً واحدةً جيدة .

وراح ذاك الفنّ يتهادى مع سائر أخوته من الفنون الفتّانة . والرقصُ من هذى الفنون . وإنَّ الرقصَ لفاتن أنَّ الرقصَ لفِتْنَة . وقد أضاف الدينَ كاتبٌ افرنجىٌّ ملعون إلى تلك الفنون، نعم أضاف الدينَ الى التى منها الرقص

فان قلنا إنّ من اللغة فناً وجب أن نحتفظ بذاك الفن وان نُعنى به عنايتنا بغيره من الفنون . وانه لأحق بالترحيب والاهتمام به من سواه . وان كان فن الموسيقى أو المصوّر مما يُهذّب نَشْءَ الأمة فالنثر القرءانى أعنى

---

(١) بنصب الحق على الظرفية وفتح همزة ان ولا يجوز الكسر

(٢) يقول ادسن : ان الانسان لم يزل فى الطور الشنبنزى

النثر العبقرىّ والشعر العُلْوىّ[١] أثرُهما فى تهذيبهم أكبر

وان عددنا الفن (كما عدَّه كاتب فرنسى يوم هاجت سرقةُ تلك الصورة La Joconde قومه) سخافةً أو هذراً ورحنا نقول مع الزمخشرى : « الفنون جنون والجنون فنون » جاز لنا أن نعد كلّ شىء فى الوجود سخيفاً وألاّ نجدَ لهذا الكون معنى[٢] ولزمَنا أن نبادر الى الانتحار وندع الدار تنعِى من بناها . لا لا . إن هـذا الحِسبان خسران والرأىُ الحكيم الرصين أن نرى الجيد جيداً والجميل جميلاً وان نبتهج بمشاهد الكائنات مع المبتهجين معرضين عن مقالات المعرى وشوبنهور وشيعة المتشائمين منشدين فى كل حين : تمتع من الدنيا فانك فانٍ

تمتع من شميم عرار نجـد

« والدنيا (كما قال جار الله) عُمرى[٣] ولا خلودَ إلاّ فى الأخرى » كتبنا الله فى تلك الدار مع النازلين فى عليّين . إنه سميع مجيب

فمن اللغة فنّ ومن إنشائها فنّ فلا تسألَنّ الفصيح البليغ فى المقال أن يذر فصاحته وبلاغته وذا الفن أن يهجر فنّه وينزل من عليائه الى فِنائه .

---

(١) قالوا : غنى النعمان بشىء من دالية النابغة فقال هذا شعر النابغة هذا شعر علوى أى عالى الطبقة وقيل من عليا نجد

(٢) يقول فريق : ليس لهذا الكون معنى وليس له غاية
ويقول آخر : ان له معنى وان له غاية . والغاية فى الغد . والدنيا مطية الأخرى
ويقول ثالث : معنى كل شىء فى نفسه وغايته ونهايته فيه

(٣) العمرى ما يجعل لك طول عمرك

ويزايل[1] عزلته ويماشى جماعته ويبتذل أسلوبه وهو يستطيع صيانته ودعْه يفتنّ فى الإنشاءِ كيف شاء

أن المتفنن فى الناس قليل (وقد مات بالأمس أناطول فرنس ولا خليفةَ فى قومه له) وهذى حالة لا يصل اليها كل ساعٍ فلا تخف من أن يكثر المتفننون . . . وهذا النفر فى الأمم سلوى المكروبين، ومهذّب الطالبين، وموقظ الهاجدين، وقائد الثائرين، وظهير[2] المتأدبين، وبكلامه يصقل الكتابُ قرائحهم

فلا تكلّف ذا الفن مصارمة فنه وكلفه تنقيحه إن اقتضت الحال تنقيحاً وتجويدَه ان دعا الداعى الى تجويد. وان لم تكلفه فالزمان يكلفُه والحاجة الى إصلاح نقص فى فنه تجبره ونور فنه يريه ظلامه فيجلّيه عنه

* * *

كانت اللغة فجاء منها فن وهو لا يكون فى كل ضَرْبٍ مما تخطه الأقلام ولن يكون. وأهلُه اثنان الشاعر والأديب ولا ثالثَ لهما فدعهما يحدوان مع الحاد. ويهيمان فى كل واد

وفضيلة كلام (الشاعر والأديب) أو هذين المتفننين هو هذا الجمالُ الذى تلاقيه فيه. ومع الجمال الوضوح كل الوضوح بل ليس الحسن الا الوضوح الكامل فمرغبى ومرغب من يترأّى برأيى أن نصون هذا الرونَق أو هذه الديباجَة كما يصون الكريم ديباجتيه فلا يبذلهما

---

(١) (يزايل) يفارق

(٢) (ظهير) معين

ويستفّ ترب الأرض كيلا يرى له عليه من الطَّول امرؤ متطولُ[١]

ولا أُبالى وخـــير القولُ أصدقه حقنتَ لى ماء وجهى أو حقنت دِمى[٢]

وكما يصون كل ذى فن فنه

وقد أعلن الأستاذ الريحانى فى مقاله أنه يهوى الديباجة ، ولا ريب فى ميله هذا ، فكل شىء تنوقت الطبيعة فى تجويده ، وكسته من الحسن ثوبه فهو يستهوى الناس بل يستهوى الآلهة وقد قالت العامة وقالت الخاصة معهم وجاء فى حديث : « ان الله جميل يحب الجمال »

ولن نُنشد (ان شاء الله) فى يومٍ بيتَ المتنبى الذى أومأ الأستاذ الريحانى اليه فى كتابه :

زودينا من حسن وجهك ما دام فحسن الوجوه حال تحولُ[٣]

فلن يحول جمال العربية ، ولن تزول ديباجتها . واذا استطاع القوم فى باريس أن يجمّلوا بالكهرباء الشنيعات ، فلن نعجز فى الشرق عن الاحتفاظ ببهجة المليحات . .

---

(١) من لامية العرب المعزوة للشنفرى وهى صنع خلف وكم لخلف وكم لسواه من مصنوعة (٢) لحبيب

(٣) وبعده :

وصلينا نصلك فى هذه الدنيـــا فان المقام فيها قليل

وهذا هو الغزل العقلى الرياضى وما كان احمد من المغرمين وهو القائل :

وللخود منى ساعة ثم بيننا فلاة الى غير اللقـاء تجاب

وما العشق إلا غرة وطماعة يعرض قلب نفسه فتصاب

المنهبات قلوبَنـــا وعقولَنا وجناتُهن الناهباتُ الناهبا[1]
النـاعماتُ القـاتلات المحييـــات المبدياتُ من الدلال غرائبا
الله أكبر

* * *

أخاف (وقد ذكرتُ الملاحة والجمال وأوردت هذين البيتين وذكرتُ الرقص من قبل وسُمع هذا التكبير) أن تسوءَ الظنون فاقعَ فى وَرْطةٍ
فوحقِّ البيـان يعضده البرهان فى مأقِطِ ألدِّ الخصامِ[2]

إنّى لست كما يتظنى ظانّ
وما الأمر كلّه الا كما قال الحماسى :

فما قطرة من حَب مزن تقاذفت به جنبتا الجودىّ والليل دامسُ
فامـــا أقرّتْه اللِصاب تنفّستْ شَمـــال لأعلى مائه فهو قارسُ
بأطيبَ من فيها وما ذقت طعمَه ولكنّنى (فيما ترى العينُ) فارسُ[4]

* * *

---

(١) للمتنبى

(٢) من ابيات اربعة ذكرها ابو العباس فى كامله وهى :

قد رأينا الغزال والغصن والنجمـــين شمس الضحى وبدر الظلام
فوحق البيان يعضده البرهـــان فى مأقط الد الخصام
ما رأينا سوى المليحة شيئاً جمع الحسن كله فى نظام
فهى تجرى مجرى الاصالة فى الرأى ومجرى الارواح فى الاجسام

قال ابن أبى الحديد : وجدت بخط أبى محمد عبد الله بن احمد الخشاب فى تعاليق مسودة أبياتاً للعطوى وهى : قد رأينا الخ . . وقد كتب ابن الخشاب بخطه تحت (المليحة) ما أصدقه إن أراد بالمليحة الحكمة

(٤) اراد بحب المزن البرد (اللصاب) شقوق فى الجبل

اجتزىء من القول فى الانشاء الفنى أو الفن اللغوى بما قد أوردت وآتى الى البحث عن اللغة ذريعةً لا غاية أو ترجمانَ علم ليس غير :

لاجرمَ أَن العلم هو المهم بل هو الأهم وما اللغة (وقد كتب للفن اللغوى أو للأدب سجلّ بقسطه منها) إلا ذريعةٌ. وليست طريق الشىء كالشىء نفسه ، ولكنك اذا لم تتذرع لأمر بذريعته المحكمة لا تصيب نجاحاً ، واذا لم تعبّد طريق مأربك لا تصل الى مأربك

ولغةُ هذا العلم عند العرب معروفة ؛ وهى لغة سهلة بينة صحيحة التركيب اللغوى قد آخت لغة الأدب إلاّ فى الديباجة وإلاّ فى ألفاظ اقتضاها الحال وعمل فيها (الانتخاب الصنعى) وكثيراً ما تنساب هذه الألفاظ الى كلام الادباء وتقعد فيه وقلما طردها أديب أريب

وسعت هذه اللغة العربية العلمية علوم فارسَ ويونانَ والهندِ وكلَّ علم جَدَّ عند العرب ولم يَشْكُ من ضيق فى اللغة أحد ، وكيف تَضيق وثمة بحور تمدها أوقيانوسات . وقد عرف فضلَ لغة القرءان فى العلم علماء الغرب وعلماء الترك ولما أراد الدكتور رضا توفيق الشهير تأليف (قاموسه الفلسفى) وجد أمامه درراً من كلمات القوم عدد الحصى وقد قال لى ذاتَ مرة : إن الألفاظ الفلسفية العربية تدل على معانيها دلالة لا تدلها الألفاظ الغربية

فحقّ على كل فاضل يبغى التأليف فى علم قد حذقه أن يُعوّل على لغة قعد الدهر (والانتخاب الطبيعى) آلافاً من السنين يتقنان صنعها ، وصحبها العلم فى الاسلام ألف سنة صحبة صِدْق ، كى يستعين هناك بأعوان وحتى

يتضح قوله ، ويُنير عامه فتَذهنَ الناس ما يقوله وما يترجمه وعندنا من الكتب القديمة فى كل علم الكثير بل أكثرُ من الكثير وقد طبعت المطبعةُ منها فى الشرق والغرب طوائف

يجعل[1] مقتبس علم غربى يترجم مبحثاً أو يُلفِّق قولاً (وهو لم يتخرّج على أستاذ قادر ولم يقرأ كتاباً واحداً ولم يعرف أسلوب عامه اللغوى ولم يقف على ألفاظه ولا على بعض ألفاظه) وتُلفيه يزحر[2] (وهو يكتب) زحيراً ، ويلعن العربية التى جهلها لعناً كبيراً ، ثم يطرح بجهيض[3] يعمى الناظرين فاذا عيّبت جهيضه لاحاك وتهدّم على اللغة بالتنقيص

وليس ذاك الصائح عند التحقيق هو العائب لكن جهله ولو علم لم يعب . ويُعزى الى على : « الناس اعداء ما جهلوا » وقال ابن أبى الحديد فى شرح النهج : « العلة فى أن الإنسان عدو ما يجهله انه يخاف من تقريعه بالنقص وبعدم العلم بذلك الشىء خصوصاً اذا ضمه ناد أو جمع من الناس فانه تتصاغر نفسه عنده اذا خاضوا فيما لا يعرفه وينقص فى أعين الحاضرين وكل شىء آذاك ونال منك فهو عدوك »

---

(١) قال ابن مالك :

واستعملوا مضارعا لأوشكا وكاد لا غير وزادوا موشكا

قال ابن عقيل : حكى غيره خلاف ذلك فحكى صاحب الانصاف استعمال المضارع واسم الفاعل من عسى وحكى الجوهرى مضارع طفق وحكى الكساءى مضارع جعل

(٢) فى الاساس : وقد زحر وتزحر وهو اخراج النفس بانين

(٣) (الجهيض) الولد السقط

وهناك أهل فضل ، قلقَ تركيبهم وخبثت ألفاظهم فاذا نقدتَ كلامهم لم يكابروا واعترفوا بتفريطهم فى جنب اللغة واستغفروا لمعلمين أعمام الله عن هديهم وتفقيههم ، ولاموا أممهم العربية ودولاتها التى تضاجعت[1] عن إعزاز لغتها ، واعترافُهم هذا ممتدح ، وإنهم فى ذلك اللوم لمصيبون

وربما كان فى الميدان أُناس (كالباب محمد على صاحب النحلة البابية) يرون أن اللغة العربية قد أجرمت[2] فى القديم فعوقبت على جرمها فألزمت هذا الاعراب وصُفِّدت بتلك الدساتير اللغوية فلما سعدت الدنيا بتجلى هؤلاء (الأبواب) غفروا ذنوبها فمنّوا عليها باطلاقها من سجن إعرابها وضوابطها فانطلقت حرة وغدا أمرها فوضى

وليس الأستاذ الريحانى من هؤلاء وليس من ذينك القبيلين ولكنه

---

(١) تغافلت

(٢) روى السيد جمال الدين الافغانى « ان محمد على لما رأى اقبال الناس عليه واجابتهم دعوته ترفع فى دعواه فقال انه هو النبى وان الله قد انزل عليه كتاباً يسمى بالبيان وانه المشار اليه بقوله تعالى خلق الانسان علمه البيان . والانسان هو محمد والبيان هو هذا الكتاب المنزل على السيد على . وكتابه هذا يحتوى على كثير من العربى المسجع وبعض الفارسى إلا ان العربى منه كان ملحوناً فلما سئل عن سبب وقوع اللحن فى هذا الكتاب المنزل مع ان اللحن نقص اجاب بأن الحروف والكلمات كانت قد عصت واقترفت خطيئة فى الزمن الاول فعوقبت على خطيئتها بأن قيدت بسلاسل الاعراب وحيث ان بعثتنا جاءت رحمة للعالمين فقد حصل العفو عن جميع المذنبين والمخطئين حتى الحروف والكلمات فأطلقت من قيدها تذهب الى حيث شاءت من وجوه اللحن والغلط » . .

فاضل نابغة[١] تنكب عن طريق التقليد ، وانكرت نفسه الرق العقلى فكدحت فى تحريرها فلما حرّرها لم يستبدّ بخيره وأراد أن يشركه فى الخير غيرُه فدعا قومَه إلى حريته ، وانتحال عقيدته . (وصاحبهُ عقيدُه فى خُطّته) ثم أبصر الأستاذُ الغربَ يطير ارتقاءً وقومهُ العرب قد ألفوا الحضيض « فهم حضيض » كما قال أبو تمام . فشقّ عليهِ أن يشهد ذُلّ جهلهم وقد اعتز بالعلم خصمُهم وآكلُهم . وتحقّق أن الذى أقعد فى العلياء الغربَ إنما هو علم الغرب فنادى إلى ايثار ذلك العلم وأشفق أن يُعوّقهم الاهتمام بالمهم أو غير المهم عن طلب الأهم فقال لهم اجتزئوا[٢] من المونة اللغوية بزاد

---

(١) نابغة من النابغين فى هذه الأمة ومشهور فى المشرق والمغرب وآثاره فى العربية هى : (١) الريحانيات أربعة أجزاء (٢) زنبقة الغور (٣) خارج الحريم (٤) نبذة فى تاريخ الثورة الافرنسية (٥) المحالفة الثلاثية فى المملكة الحيوانية (٦) ملوك العرب جزءان (٧) تاريخ نجد الحديث (٨) النكبات أو خلاصة تاريخ سورية منذ العهد الأول بعد الطوفان الى عهد الجمهورية بلبنان . . . وهذا فى الطبع وآثاره فى الانكليزية هى : (١) كتاب خالد (٢) اللزوميات (٣) نشيد المتصوفين (٤) تحدر البلشفية (٥) مسلك النفس (٦) وجدة (٧) بحث انتقادى أدبى

(٢) قالوا : لا يقال قلت له أن اعمل كذا ولكن قلت له اعمل كذا فى المغنى : « والرابع الا يكون فى الجملة السابقة احرف القول فلا يقال قلت له ان افعل . وفى شرح الجمل لابن عصفور أنها قد تكون مفسرة بعد صريح القول . وذكر الزمخشرى فى قوله تعالى ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله أنه يجوز أن تكون مفسرة للقول على تأويله بالأمر أى ما أمرتهم الا بما أمرتنى به أن اعبدوا الله . وهو حسن . وعلى هذا فيقال فى هذا الضابط ألا يكون فيها حروف القول الا والقول مؤول بغيره »

قلت : وأرى أن أنقل فى هذا المقام على ذكر التأويل وقول ابن عصفور وابن هشام طائفة من حديث للعلامة الدكتور طه حسين فى مجلة (الحديث) فى حلب

المسافر . فلن يعذل وهذا قصدُه وقد قال خالق الأمة العربية «إنّما الأعمالُ بالنيّات وإنما لكل امرىءٍ ما نوى »

والحقُّ الذى يدريه الأستاذ الريحانى ولكن حرصه على الذى رآه أحق بالتقديم قد حمله على أن يتناساه هو : أن الانتباه الأدبى فى الأمم يسبق الانتباه العلمى فهذا بناءٌ وذاك أساس ، وأن الأمم العربية اليوم فى عهد الترجمة وعند الغرب علوم كثيرة ومباحثُ فيها دقيقة ، وفرضُ عين أن تنقلها

« اما وقد انهار أوكاد ينهار ما يسمى « بالادب الجاهلى » فقد أصبح « القرءان » الأساس الوحيد لدرس الأدب العربى من الناحية الفنية واللغوية بل من ناحية القواعد النحوية والبيانية نفسها . واذا كان القرآن الى ذلك من غير نزاع هو « المثل الأعلى » للبلاغة العربيــة فقد أصبح درسه من جميع نواحيه الادبية واللغوية فرضاً على كل معهد أدبى يقدر واجبه للغة وآدابها . وقد بدأت « كلية الآداب » بالفعل فى هذا الدرس فطلاب السنة الثالثة فيهـا يدرسون القرآن درساً مفصلاً من الناحية الفنية واللغوية ومن ناحية نحوه وصرفه وتاريخه وتفسيره وما نشأ حوله من العلوم المختلفة .

وعندى أن درس القرآن على النحو الذى نهجته « كلية الآداب » سيغير فى الأدب العربى شيئاً كثيراً

واستطيع ان اقول لك منذ الآن اننا قد اخذنا نلاحظ ان قواعد النحو فى حاجة الى كثير من التغيير بفضل هذا الدرس ولا سيما ما يتصل من هذه القواعد بالضمائر فالظاهر أن النحويين لم يوفقوا الى وضع نحو صحيح للقرآن ، وانما وضعوا نحوهم متأثرين بالشعر والنثر ، نثر الخطابة ولغة التخاطب ولم يفطنوا لدقائق كثيرة فى القرآن فعدت شاذة أو عدت من الخصائص المقصورة عليه او سلك فى تأويلها طريق التكلف وكان أيسر من هذا كله ان يتخذ القرآن وحده اصلاً لنحو القرآن . وانتظر قليلاً فسترى الى اى حد تنتج الدراسة العلمية الصحيحة ما للقرآن وسترى كيف تظهر هذه الدراسة ما للقرآن من مكانة فنية عالية لم تعرف بعد » اهـ

فهل قرأت أو سمعت أصح من هذا الحديث ؟

العربية ، وأن يفقهها نشؤها ، ولن تُفهم ولن تفيد حتى تصحّ ترجمتها . ولن يستطيع احتواء تلك العلوم ومعانيها إلاّ اللغةُ القرآنية العلمية إلاّ اللغةُ الصحيحُ تركيبُها ، الكثيرُ لفظها التى ظلّ العلم القديم يليّنها ويوسعها ويصقلها أحقاباً ، وإذا لم توصل لغة علم اليوم بلغة علم الأمس ويُستظهر بهذه فلا علمَ فى هذا الوقت عند العرب ومن ظن أن اللغة العاميّة أو هذه التى هى فوق العامية تقدر أن تعىَ علومَ الغرب وتضم عباراتُها تلك المعانىَ الجديدةَ الأوربيةَ فظنه عجيب

وإذا كان القصد أن يُترجم القول الغربى بعبارة من العبارات (والتفهيم على الله) فالله قادر أن يَقِفنا على (مقالة انشتين) التى لم يفهمها من علماء الأرض إلاّ ستة أو سبعة من دون أن يزعج التراجم أنفسَهم بنقلها « فانما يقول للشىء كُنْ فيكونُ[1] » ولكن اللهَ لن يقول هذا وليس من عمله أن يتصدّى لحل الألغاز وتفهيم الناس إيّاها

* * *

نرجع الى تلك الكتب العربية فى العلم فنصلُ ما قُطع ، ونستعين بما نَجد ، ونَبنى لغة العلم اليوم على لغتهِ بالأمس (كما ذكرت آنفاً) فيبِينُ العلم ويدركه طالبهُ ، وتصبح العربُ ولهم علم ولغةُ علم

---

(١) قال العكبرى معرب الكتاب : « الجمهور على الرفع عطفاً على يقول أو على الاستئناف أى فهو يكون وقرئ بالنصب على جواب لفظ الأمر وهو ضعيف »

العربية فى المدرسة

قلت هذه الخطبة فى مؤتمر رؤساء المدارس فى معارف فلسطين
فى ٢١ نيسان سنة ١٩٢٧

اللغةُ هى الأمةُ والأمة هى اللغة وضعفُ الأُولى ضعفُ الثانية. وهلاكُ الثانية هلاكُ الأولى. وكلُّ قبيلٍ حريصٌ (وقد كان فى هذه الدنيا) جِدُّ حريصٍ على أن يستمرّ كونه وعلى ألاَّ يَبيد. فهو مستمسك بلغته للاحتفاظ بكينونته. واللغة ميراث أورثه الآباءُ الأبناءَ. وأحزمُ الوُرّاث صائن ما ورث. وأسفههم فى الدنيا مضيّع.

وإنّا (أمم اللّسان الضادىّ) لعربٌ وإنّ لغتنا هى العربية. وهى الإرث الذى ورثناه. وإنا لحقيقون والآباء هم الآباء. واللغة هى تلك اللغة بأن نقى عربية الجنس وعربية اللغة نقى العربيتين مما يَضيرهما أو يُوهنهما وليس ثَمَّةَ صادٌّ عما نريد. وليس ثَمَّةَ ذامّ

ولو كان المورثون صغاراً ولو كان الميراثُ حقيراً لوجب علينا إكبارُهم وإعظامه. فكيف والتاريخُ يقول: إنّ الآباء كانوا كراماً. وإن الآباء كانوا عظاماً. وكان لهم الخلقُ المتين الجيد، وكان لهم السلطان القوىّ والسُّؤدد. وكانوا الأئمة فى العلم وكانوا الأئمة فى الحكمة فاقرأْ كتب علمهم واقرأْ كتب حكمتهم

والزمانُ يقول : إن العربية خيرُ ما صنعت يداى (وإن الدهر لَصَنَعٌ) وإنها لخيرُ طُرفة أطرفتُها الناسَ . والزمانُ بالخير (وان جاد) شحيح. فالعربيةُ الصنع العبقرىّ للدهر والعربية الدرّة اليتيمة أو كنزُ الزمان ضَنَّ به كلَّ الضن ثم سخا

وإذا كان للنفوس العربية فى الجزيرة وهى نفوسٌ تجسَّمت من القوة أو تكوّنت منها القوة وهى نفوس تعالت وتعزّزت فنشأت فى الدنيا ألفاظُ العلو والعزة وهى نفوس صفت وصرُحت وما صفاءُ سواها وصراحتُه فى صفائها وصراحتها إلاَّ كدرٌ ولَبْس

إذا كان لهذى النفوس فضلٌ على لغتها إذ كانت منجمَها الذى منه بدت . فلهذه اللغة البيّنة المحكمة فضلٌ على تلك النفوس . فقد أعطى بيانُ اللغةِ وإحكامُها أهلَ اللغة ما أخذته منهم وقد أحسنَ الماسُ المُشِعُّ إلى منجمه . فهذا كوَّن ذاك . وذاك نوَّر هذا

وإنّ العربية لو لم تكن الابداع كلّه . ولو لم تكن الجمالَ الأجمل . ولو لم تكن اللغةَ المصطفاةَ . ولو لم تكُ لغةً عجباً ما اختارها الدهر لقرءانها « واللهُ أعلمُ حيثُ يَجعلُ رِسالتهُ » ولم تستطع الفاظُها الاستقلالَ بمعانيه . وكلُّ معنى فيه يأبى أن ينزلَ إلاَّ فى أكرمِ لفظ . وكلُّ مقصد من مقاصده لا يقبلُ الا أعجبَ أُسلوب . ولن ينزلَ أهلُ السماء إلا فى ذروة العلياء . والكتابُ وإن علا حتى أظلَّ (سدرةَ المنتهى) قد أدناهُ وقد جلَّاه نور بيانه حتى أرانا إياه . والشمسُ قد علت وقد ابتعدت وهل يُحيى وهل يضىء هذى الأرضَ إلاَّ الشمسُ

تلكم الأمة العربية ، وتلكم اللغة العربية . وذلكم كتابها . والأمةُ عجيبة . واللغةُ عجيبة . والكتابُ عجيب . وقد مشينا فى هذا الكون يَهدينا كتابنا . ويسوقنا خلقُنا و بنينا فيه البنيانَ فأغربنا . وقلنا القولَ فأبدعنا . فدُهش الراءى وحار السامع . وكان ذلك الخلق يدفعنا إلى الخير فنندفع فيه . وكان الكتاب يأمرنا بالعمل الصالح فنلبّيه . وكان اللسانُ فصيحاً . وكان اللسان بليغاً (والفصاحةُ هُدى والبلاغة نورٌ) وكنا إذا قلنا أبَنَّا . وكنا إذا كتبنا أوضحنا . وكنا إذا استمددنا العربيةَ (وهى ذاتُ الأمداد فى اللفظ والأسلوب) أمَدَّتْ

وقد تكاثرت عليها قِدْماً علوم الأمم فرحّبت بها كلّها . وأعطت كلَّ علم مطلوبه . وذو الثّراء الكريم يجود . والضّن عند الشحيح العاجز

وكان كتاب العربية يحدو أهل العربية على كل علم وفى الكتاب :

« قل هل يستوى الذين يعلمونَ والذين لا يعلمونَ »

فكأىٍّ من عالم فى الزمان الأول فى العربية قد نبغ . وكأى من كتاب رصين قد كُتِب . وكأىٍّ من دار علم قد شيدت . وأثرُ العرب الخالد شاهد . فسل الآثارَ عن أقدار أهلها تُنبِئْك

كنا الأقوياء وكنا الحكماء وكنا البلغاء . ثم فقدنا ذاك الخلْق ولا تسلنى كيف فقدنا ذاك الخلْق فتعذّبَ القلب الكليم القلب الجريح عذاباً أليماً وتسعِّر فيه بالذكرى جحيماً . فلا تسلنى كيف فقدنا ذاك الخلْق

قد فقدنا ذلك الخلق فقدنا القوة وفقدنا الحكمة وعيَ اللسانُ الناطقُ قِدماً . ونسينا عربيتنا . نسينا كينونتنا . وما حياةُ القبيل لا قوة له ؟ وما حياة القبيل لا علم لديه ؟ وما حياة القبيل قد ضيع لغته . وفقد كينونته ؟ فقلَّ عربى يشعر حقًّا بعربيته — بكونه عربيًّا

فلا تقم يا هذا فى كل حول ماتماً على قتيل قُتل وميت مات وأقم الماتم كل يوم على خلقٍ عربى كريم فقدناه . وسلطانٍ عظيمٍ أضعناه . بل لا تبكينْ هـذا ولا ذاك فقلَّ جَداءً عنك بكاءٌ وما نفع فى حين نادباً ميتاً نَدْبُ

وما يدرك الحاجاتِ من حيث تُبتغى من النَّاس إلَّا من أجَدَّ وشَمَّرا

نريد خلقاً عربيًّا نريد قلباً عربيًّا نريد لغةً نريد لساناً ينطق بالحق نريد لساناً ينطق بالعلم

فمن يُكوِّن هذا الخلق ؟

ومن يذكّر العربىَّ بعربيّته ؟

ومن يصلح لساناً قد فسد ؟

ومن يبيع نفسَه فى سبيل الله ؟

وأينَ المعقِلُ الحصين تَلجأُ اليه العربية ؟

وأين المصنع الكريم يُبدِئُ فيه الصانِعون الصنَع المنشود ؟

وأين دار الأمل تلوذُ بها النفوس المكتئبة القانطة ؟

من المكوِّن ؟ من المذكر ؟ من المصلح ؟ من البائع نفسه فى سبيل الله ؟

وأين المعقل ؟ أين المصنع ؟ أين الدار دار الأمل ؟

الاستاذ ، المدرسة

مطبعة المعارف (١/٥٠٠٠/٤/١٩٢٨)

DATE DUE

492.704:N251aA:c.2
النشاشيبي ،محمد اسعاف
العربيةَ وشاعرها الاكبر احمد شوقي
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01028977

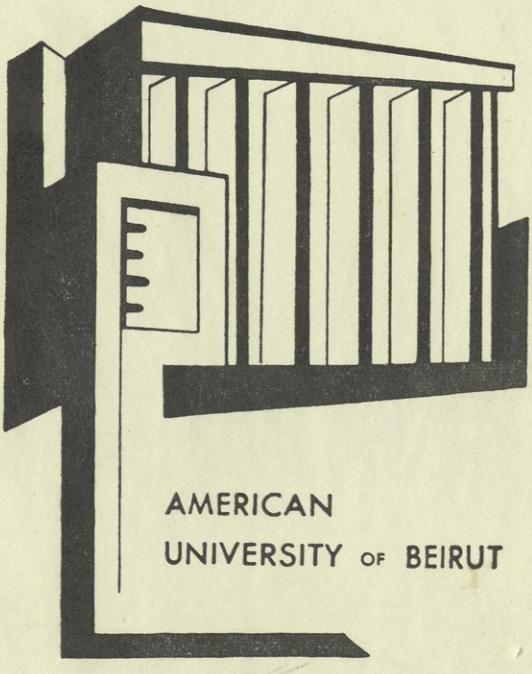

492.704
N25laA
c.2